التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية

أ.د. بلحسن يونس

جامعة ابن طفيل، القنيطرة – المغرب –

ملخص:

تستهدف هذه الدراسة رصد ودراسة طبيعة التربية السلوكية من خلال المصادر الدينية الإسلامية ومدى استحضار الشيخ الصوفي هذه المصادر في تربية وتهذيب المريدين على القيم والمبادئ الإسلامية، وخلصت الدراسة إلى أن التربية السلوكية من خلا المضامين الصوفية ليست تربية نظرية فحسب، بل هي سلوك تربوي قولي وفعلي مع الذات والفرد والمجتمع.

وقد اتبع الباحث منهجين في الدراسة: المنهج الاستنباطي والمنهج الوصفي في دراسة موضوع " **التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية** " في منظورها التربوي أساسا.

وخلص الباحث في نهاية البحث إلى مجموعة من النتائج، من بينها:

– إن التربية السلوكية على أيدي مشايخ تسهم في تكوين المريد على المبادئ الأخلاقية والسلوكية والدينية، كما أوضح الباحث أنواع التربية التي يقوم بها الشيخ في تربية مريديه.

الكلمات المفتاحية: التربية، السلوكية، المضامين، الصوفية.

Behavioral Education through the contents of the Moroccan Sufi

Abstract_ this study aimed to monitor and study the nature of behavioral education through Islamic religious sources and extent of sofi sheikh evoke these sources in the education and discipline devotees on the values and principles of the Islamic, and the study concluded that behavioral education through the contents of Sufism is not astrobiogical breeding, but is behaviour tell educational and real with the self and the individual and society.

The researcher followed two approaches in the study: deductive approach and descriptive approach in the study of "behavioral education through the contents of the Moroccan Sufi" in perspective educational foundation.

The researcher concluded at the end of the search to a range of outcomes, of betweenit:

- Behavioral education at the hands of the elders contribute to the formation aspirant on the ethical, behavioral and religious principles, as explained researcher types of education carried out by the Sheikh in the upbringing of his attendants. **Key words:** Education, Behavioral, Implications, Sufism.

مقدمة:

يعتبر التصوف المغربي ظاهرة تربوية جديرة بالدراسة والبحث، وقد عني الدارسون بمقاربة هذه الظاهرة من مختلف الجوانب؛ هناك من درسه من وجهة تاريخية، وآخر من وجهة سياسية، وآخر من وجهة أدبية...الخ، لكن من وجهة تربوية لم يحظى بالاهتمام الكافي، بل نكاد نعدم الأبحاث التي تغطي الأثر التربوي في التصوف، ولا نعلم إلا كتاب واحد قريب من موضوعنا.

وجاءت هذه الدراسة بعنوان " **التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية** "، لتبين مدى أهمية الموضوع في الدرس الأكاديمي، ودوره في معالجة المشاكل النفسية لدى الأشخاص المنحرفين سلوكيا وتربويا، وفي ترسيخ الأسس والمبادئ الإسلامية التي يرشد بها الشيخ مريديه.

لذلك، تشكل هذه الدراسة البناء وإصلاح المجتمع، لا سيما في هذه الظروف التي يعرف فيها المجتمع المغربي نوعا من الانحلال الأخلاقي والتربوي عموما.

ودراستنا هذه، هي دراسة استنباطية ووصفية لما تقوم عليه **الطرق** (المنهج) الصوفية بالمغرب .

إشكالية الدراسة:

تنطلق الطرق الصوفية المغربية من قاعدة أساسية يسير وفقها جميع المريدين المنتمين لطريقة ما، هي تربية النفس وتهذيبها تهذيبا سلوكيا يحث على القيم الإنسانية العليا، وتقريبها من الخالق عز وجل بفتح بصيرتها، وتهذيب خلقها.

إن الطرق الصوفية المغربية تتضمن أسمى أنواع التربية التي تهدف بالأساس إلى تربية المريدين على ما جاء به **الدين الإسلامي والسنة النبوية** والالتزام **بمناهجها التربوية** ومحاربة كل أشكال الانحراف

الخلقي، لذلك صارت التربية من خلال المضامين الصوفية بؤرة اهتمام الدرس التربوي والديني والاجتماعي والنفسي، خصوصا عندما تعرض أبناء المجتمع المغربي بالانحلال الخلقي في عصرنا الراهن.

وعليه، فإن إشكالية البحث تتأسس أساسا على أن" **منهج" / "طريقة"** التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية ليست **تربية نظرية** – فحسب – بل هي كذلك تربية عملية تتجلى بوضوح في تربية المريدين على **المبادئ والقيم التربوية الإسلامية**، وهو **سلوك تربوي – قولي وفعلي – مع الذات والفرد والمجتمع**.

ومما تقدم، إن موضوع الدراسة، هو: " **التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية** ".

أسئلة الدراسة:

وعلى هذا الأساس، تتمحور الدراسة في السؤال الرئيس التالي:

– ما التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية ؟

وينبثق عن هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

1– ما تعريف التصوف في اللغة والاصطلاح ؟

2– ما أسس الطريقة الصوفية التربوية التي يستند إليها التصوف المغربي ؟

3– ما المصادر الدينية الإسلامية التي يستنبط منها المتصوف منهجه وسلوكه التربوي ؟

4– ما المضامين التربوية السلوكية في منهاج الطرق الصوفية المغربية ؟

أهداف الدراسة:

بشكل عام تهدف الدراسة إلى:

بيان التربية السلوكية التي ينهجها "**الشيخ**" في تربية **المريد/ الصوفي** على أسس المصادر الدينية الإسلامية، وأهم النقاط التي تهدف إليها الدراسة، كما يلي:

1- بيان تعريف التصوف لغة واصطلاحا؛

2- بيان الأسس التربوية التي يقوم عليها التصوف المغربي؛

3- بيان المصادر الدينية التي يقوم عليها التصوف المغربي؛

4- بيان المضامين التربوية السلوكية في منهاج الطرق الصوفية المغربية.

أهمية الدراسة:

يحتكم التصوف المغربي لنظام تربوي، يتولاه **شيخ** الطريقة الصوفية على منهج رباني، يعتمد فيه على تقويم سلوكيات المريدين من خلال حثهم على اتباع ما أمر به الله عز وجل، والسير على منهاج رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم. وتأتي هذه الدراسة لبيان التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية، وما تحويه من توجيهات تربوية سلوكية قيمة تفيد الفرد والمجتمع. وتتضح أهمية الدراسة كما يراها الباحث في ما يلي:

1- التصوف مدرسة التعاليم الدينية تخدم الفرد والمجتمع.

2- التصوف فيه مجموعة من المبادئ والقيم التي تتعلق بتربية الفرد وتهذيب سلوكه وجعله فردا صالحا داخل المجتمع ؟

3- يساهم التصوف في تقويم اعوجاج سلوكيات الفرد، وفي بناء وتربية المجتمع دينيا وخلقيا.

4- استثمار مبادئ وقيم التربية الصوفية وترسيخها في المجتمع.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث المنهج الاستنباطي والوصفي في تحقيق أهداف الدراسة:

يعرف **المنهج** بـ " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد، تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"[1] .

والمنهج **الاستنباطي**، منهج استنباط الأحكام التربوية وسنن الله في الظاهرة الإنسانية من النصوص الشرعية، وهو " طريقة البحث لاستنتاج أفكار ومعلومات من النصوص وغيرها وفق ضوابط محددة ومتعارف عليها "[2].

ويعرف أيضا بـ: " الطريقة التي يقوم الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص بهدف استخراج مبادئ تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة "[3].

بينما المنهج **الوصفي** يعرف بأنه: " طريقة من طرق التحليل والتفسير بشكل علمي منظم من أجل الوصول إلى أغراض محددة لوضعية اجتماعية أو إنسانية، ويعطي أمين الساعاتي تعريفا شاملا للمنهج الوصفي فيقول: يعتمد المنهج الوصفي على دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع ويهتم بوصفها وصفا دقيقا

[1] – صالح بن حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، الرياض، مكتبة العبيكان، 1989، ص90.

[2] – مقداد يالجن محمد علي: دليل التأصيل الإسلامي للتربية، الجزء الأول، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1419 هـ، ص 22.

[3] – سلسلة في معرفة الدليل (حاشية على زاد المستقنع) ، لصالح بن ابراهيم البليهي، ط 3، 1410 هـ.

ويعبر عنها كيفيا أو كميا. فالتعبير الكيفي يصف لنا الظاهرة ويوضح خصائصها، أما التعبير الكمي فيعطيها وصفا رقميا يوضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها أو درجة ارتباطها مع الظواهر الأخرى "[4].

لذا قام الباحث بدراسة الطريقة الصوفية التي ينهجها الشيخ الصوفي في تربية مريديه على الكتاب والسنة النبوية، مع استنباط ودراسة مجموعة من نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية التي يعتمد عليها المتصوفة في نهجهم. ومن تم بيان التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية.

حدود الدراسة:

- **الحدود الموضوعية:** موضوع التربية عموما والتربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية خاصة.

- **الحدود الزمانية:** جرت الدراسة في حدود ثلاثة أشهر تقريبا من العام الميلادي 2019.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

على علم الباحث ليس هناك دراسة للتصوف المغربي من الناحية التربوية بشكل مباشر، إلا دراسة واحدة تناولته من الناحية الوصفية، وهي:

1- (الحكاية الشعبية الصوفية: اشرافات من أدب السلوك، لعبد الرحمان الملحوني): دِراسة جَمعَ ودَونَ فيها المؤلف مجموعة من الحكايات الصوفية والمرويات التي كانت تدور بين شيخ الطريقة والمريدين، وهي مرويات حكائية عبر جلسات مختلفة، يجيب فيها الشيخ على مجموعة من الأسئلة التي تطرح عليه من طرف المريدين، ودراستنا هذه، دراسة وصفية واستنباطية لأهم الأسس والمصادر الدينية التي يحاول من

[4] – شيث يوسف عيسى، بحث ماجستير بعنوان: الاتجاه الواقعي في الأعمال القصصية لبهاء طاهر، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا،2013م.

خلالها الشيخ تهذيب المريدين على القيم التربوية الإسلامية، والتي قد قمنا بذكر أهميتها في مستهل البحث وما ستقدمه للدرس الأكاديمي والتربوي في موضوع التصوف من جديد.

الإطار النظري:

أولا: تعريف التصوف

1. التصوف في اللغة:

اشتقت كلمة التصوف من فعل صوف جعله صوفيا، أي تخلق بأخلاق الصوفية. والصوفية فئة من المتعبدين[5]، " وقد اختلف الناس في نسبة الكلمة هل هي من الصفة، أو من الصفاء، أو من صوفيا وهي باليونانية بمعنى الحكمة. أو من الصوف لأنهم في أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف أخشيشا. وزهادة، كما نرجح أنها كانت ترتكن في أول أمرها على أساس إسلامي "[6].

اختلف الدارسون حول معنى التصوف كل حسب موارده الثقافية التي اشتق منها بعض موارده وخاصة الحضارة الفارسية والهندية واليونانية والصينية، الشيء الذي جعل ابن خلدون يقول: " قال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف ... قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف "[7].

2. التصوف في الاصطلاح:

[5] – المنجد في اللغة والأعلام، دار الشرق، بيروت، لبنان، ط 39، سنة 2000م، ص441.

[6] – أحمد أمين: ظهر الإسلام، المجلد 2، بيروت، لبنان، ط5، 1969، ص 150.

[7] – ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط39، 2000 م، ص 467– 468.

التصوف تجربة روحية ووجدانية وتربوية يمارسها إنسان ملتزم، ويعرفه ابن خلدون بقوله: " هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة "[8] من أجل " مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفي هذه المنجاة طهارة للقلب والروح والنفس لمن شاء أن يتطهر وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس، وفي ذلك عروج بالروح إلى سماء النور والتكامل وصعود إلى عالم الفيض والإلهام، وما هذا التبتل والنجوى اللذان ينبض بهما قلب الصوفي وعقله الإضراب من التأمل والنظر والتدبر في ملكوت السموات والأرض بالعقل والقلب معا "[9].

أما السهروردي فقد عرف الصوفية بقوله: " فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فالبتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد انفتحت مسام بواطنهم، وسمعت آذان قلوبهم وأعانهم على ذلك نهدهم في الدنيا "[10]. والتصوف " خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء "[11]، " ولعل هذا التعريف من أدق التعريفات، فقد جمعت عباراته بين جانبين يكونان وحدة متكاملة، أحدهما: وسيلة، والثاني: غاية. أما الوسيلة: فهي الصفاء، وأما الغاية: فهي المشاهدة. والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية "[12].

ثانيا: أسس الطريقة الصوفية المغربية

[8] – ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص 467.

[9] – ممدوح الزوبي: الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، 2004، ص 9.

[10] – السهروردي: عوارف المعارف، هامش إحياء علوم الدين، عالم الكتب، دمشق، (د. ت)، ج 1، ص 197.

[11] – عبد الفتاح محمد سيد أحمد: التصوف بين الغزالي وابن تيمية، دار الوفاء، ط 1، مصر، 2000، ص 16.

[12] – المرجع نفسه، ص 17.

إن أسس الطريقة الصوفية[13] التي يستند إليها التصوف المغربي، تعتبر من المبادئ الأساسية التي ترتكز عليها الطريقة، إذ يجب على كل مريد ينتسب للطريقة أن يلتزم بطلب العلم الشرعي والعمل به، ومنهاج الطريقة الصوفية يتجلى في ثلاثة أمور رئيسية، وهي:

1. طلب العلم والعمل به:

إن طلب العلم للمريد أمر ضروري ويعد امتثالا للقرآن الكريم: " وقل ربي زدني علما "[14] ولمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"[15].

والعلماء هم أهل الذكر، الذين يفتون الناس بسؤالهم عن عدم العلم، لقوله تعالى: " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون "[16].

وطلب العلم واجب على المريد؛ لأن الله عز وجل يعبد بالعلم لا بالجهل، وبالعلم يتم التعرف عليه كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

2. الذكر والمذاكرة:

[13] - يمكن الإشارة في هذا الصدد، الطريقة البودشيشية والتجانية والدرقاوية.

[14]– سورة طه، الآية 114.

[15] – أخرجه الترمذي [2682].

[16] – سورة النحل، الآية 43.

الذكر " هو ما يجري على اللسان والقلب من تسبيح الله – تبارك وتعالى– وتنزيهه وحمده، والثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال"[17]، و " ليس الذكر قاصرا على تحريك الألسنة والشفاه، إنما الذكر على سبعة أنحاء، فذكر العينيين البكاء، وذكر البدن الوفاء، وذكر الروح الخوف والرجاء، وذكر القلب التسليم والرضاء"[18] .

ففي علم النفس " وبلغته استحضار الصور والمعاني التي مرت بالإنسان محسه بإحدى الحواس أو مقروؤة سواء اصطحب هذا الاستحضار بالتعبير اللساني أم لم يصطحب، والذكر باللسان بالمعنى اللغوي مستخدم أيضا في علم النفس"[19] و " لا تخرج معاني الذكر ومشتقاته غالبا في الاصطلاح الديني عنها في اصطلاح علم النفس، وقال القرطبي: أصل الذكر التنبه بالقلي المذكور، وسمي الذكر باللسان دلالة على الذكر القلبي. غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم "[20].

فالمقصود بالذكر إذن، تربية النفس وتزكيتها، وتطهير للقلوب، وإيقاظ الضمائر[21]. وهو يشمل التسبيح، والتحميد، والتكبير، والاستغفار، والابتهال[22].

3. الصحبة الصالحة:

يدعو شيخ الطريقة الصوفية المغربية جميع المريدين الالتزام بالصحبة الصالحة، والهدف تربوي يتم فيه التأثير والتأثر من خلال اكتساب السلوك وأخلاق صاحبه وصفاته، وحتى طريقته في الكلام والأكل والعبادة والنوم، لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " المرء على دين خليله فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يخالل"[23].

---

[17] – عبد الحميد كشك: فضل الذكر والدعاء، دار البشير – القاهرة للطباعة والنشر والتوزيع، بدون طبعة، ص7.

[18] – نفس المرجع: ص 9.

[19] – محمد بن أحمد بن بدوي الدسوقي الشنشوري: فقه الذكر والدعاء، ط 1، 1992، ص 11.

[20] – نفس المرجع، ص 11.

[21] – عبد الحميد كشك: فضل الذكر والدعاء، مرجع سابق، ص 18.

[22] – محمد بن أحمد بن بدوي الدسوقي الشنشوري: فقه الذكر والدعاء، مرجع سابق، ص 9.

[23] – أخرجه "أبو داود" برقم 4833 و"التِّرمِذي" برقم 2378.

ثالثا: المصادر الدينية

فالمصادر الدينية الإسلامية التي يستنبط منها المتصوف منهجه وسلوكه التربوي، اثنين:

1- القرآن الكريم:

يعد القرآن الكريم المصدر الرئيس الأول للمتصوفة المغاربة، إذ ينهل منه شيخ الطريقة مجموعة من الآيات الخاصة بتربية المريدين، وهي على أنواع:

- **التربية على تزكية النفس:** ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن تربية النفس وتزكيتها عن الهوى، كقوله تعالى: "ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير"[24]، ويقول أيضا: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"[25] و"قد أفلح من تزكى"[26] وقوله أيضا " قد أفلح من زكها وقد خاب من دساها" يقول أيضا "لقد من الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن قالوا من قبل لفي ضلال مبين"[27] ويقول أيضا "وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين"[28].

يظهر جليا من خلال الآيات أن القرآن الكريم هو الموجه، والمرشد والمربي الأول على صون النفس، وتهذيبها تهذيبا سلوكيا وتقويم كل أشكال الانحراف التي يمكن أن تؤدي بالإنسان إلى الهلاك، لذلك يستنبط

---

[24] – سورة فاطر، الآية 18.

[25] – سورة الشمس، الآية 7 -8-9- 10.

[26] – سورة الأعلى، الآية14.

[27] – سورة آل عمران، الآية 164.

[28]– سورة الجمعة، الآية: 2.

الشيخ من القرآن الكريم ما يمكنه من توجيه المريدين وحثهم على السير وفق المنهج الرباني الذي رسمه الله للمسلم .

– **التربية على التهذيب الخلقي / السلوكي:** يعتمد فيها الشيخ على توجيه المريدين على عدم الوقوع في المعاصي والخوف من الله عز وجل في ارتكاب ما يغضب الله من سلوكيات وأخطاء خارجة عن إطار الشرع تؤدي بالإنسان إلى الانزلاق عن كتاب الله ومنهج رسوله الكريم، يقول الله عز وجل : "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"[29].

– **التربية على مجاهدة النفس:** يعتبر جهاد النفس، هو الجهاد الأكبر الذي يركز عليه شيخ الطريقة في توجيه المريدين وحثهم على التحلي بأخلاق الإسلام أمرا ونهيا وامتثالا واجتنابا لنواهيه، مصداقا لقوله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين" [سورة العنكبوت، الآية 69] والتربية على مجاهدة النفس غذاء للروح والقلب والضمير وتجعل القلب على ارتباط وصلة دائمة بين بين العبد وربه، لقوله تعالى: "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب" [سورة الرعد : الآية28]

2– السنة النبوية: تعد السنة النبوية المصدر الثاني للمتصوفة المغاربة، والاقتداء بها أمر ضروري من طرف شيخ الطريقة والمريدين، واتباع أخلاقه صلى الله عليه وسلم وأفعاله وسلوكه ومنهجه والتأسي به في جميع الأمور، لقوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله"[30].

[29] – سورة النازعات، الآية:41.

[30] – رواه الترمذي وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة" (2870).

وفي حديث آخر يمتثل المتصوفة المغاربة بما وعظ الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة على اتباع سنته ونهجه التربوي في الحياة؛ روى أبو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي عن العرباض بن سارية قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منا العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاث الأمور ؛ فإن كل بدعة ضلالة"[31].

وفي حديث آخر يتشبت الصوفية بالنهج التربوي الذي أوصى به صلى الله عليه وسلم في استنباط جميع الأحكام التشريعية والتربوية من الكتاب والسنة النبوية، يقول صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي"[32].

ويقول أيضا صلى الله عليه وسلم:"من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها. ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء"[33].

رابعا: التربية السلوكية من خلال المضامين الصوفية المغربية

تعد الزاوية مؤسسة دينية يمارس فيها المريد/ الصوفي الأعمال الملازمة للتصوف على أيدي شيخ الطريقة، وهي ذا بعد تربوي على المبادئ والقيم الإسلامية. فالشيخ هو العارف والموجه والمرشد والمربي والقدوة الحسنة التي يجب أن يقتدي به جميع المتصوفة / المريدين.

[31] – سنن أبي داود 281/ برقم 4607.

[32] – أخرجه الحاكم في المستدرك 307/ 1 برقم 291، والدارقطني في سننه 10 برقم 4665 والبيهقي في السنن الكبرى 114/ 10 وصححه الألباني في صحيح الجامع.

[33] – صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة – برقم 1017.

وتتمركز التربية عند المتصوفة المغاربة من خلال تربية النفس على "الأحوال والمقامات: الصدق والإخلاص فأما الصدق فيتشعب عنه: الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس. وأما الإخلاص، فيتشعب عنه اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم. والعلاقة بين الصبر والرضا أن مقام الصبر لا يتحقق إلا بوجود الرضا فيه. كما أن الرضا يفضي إلى اليقين والمحبة. أما الخوف لا بد من ملازمة الرجاء له. وأما الحياء فناتج عن المراقبة والمحبة في آن، وهو يعطي الإجلال والتعظيم"[34].

وعليه، فالتربية في المدرسة الصوفية المغربية لها مكانة خاصة، وتعتبر العمود الفقري للتصوف عموما والمغربي خاصوصا، ولا تتحقق إلا من خلال التربية الأخلاقية والروحية وتزكية النفس عن الهوى.

إذا، فالمضامين التربوية السلوكية في منهاج الطرق الصوفية المغربية ليست دعوة إلى الخمول والكسل وعدم القيام بواجبات ومتطلبات الحياة، بل هي دعوة للقيم الأخلاقية والتربوية ونبذ الشهوات وملذات الحياة بكل أنواعها، والزهد فيها، على أساس أن التصوف تحقيق للشريعة واتباع للمنهج الرباني تصديقا وعملا، خاصة بالتأكيد على التوحيد والإيمان وإخلاص العبادة لله عملا وسرا دون جعل من هذه العبادة بعدا يعبر عن الرياء في المظهر الخارجي.، بل بعدا تربويا وسلوكيا وأخلاقيا يظهر من خلال المعاملات مع الذات والفرد والمجتمع ومع الطبيعة في بعدها الكوني.

وليس التصوف الهروب من المجتمع قصد الانغلاق على الذات فحسب، بل هو ممارسة تعويد الذات والنفس على اكتساب حسن الأخلاق واستنباط من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم والتابعين والصالحين على ما كانوا يتصفون به من أخلاق وعبادة ومجاهدة النفس وجعل من الدنيا دار عبادة وتربية النفس، كأساس للتربية، ووسيلة تحقيقها، لأنها بالتالي: تجمع بين النظر والممارسة، وبين التدبير والفكر، وبين العلم والعمل. وعليه فتأسيس فلسفة التربية السلوكية عند المتصوفة المغاربة، تربية

[34] – أمين يوسف عودة: تجليات الشعر الصوفي: قراءة في الأحوال والمقامات، دراسات أدبية، ط 1، عمان، ص 39.

تستهدف تصفية النفس وتهذيب الأخلاق، وتعويد الجسد على السلوكيات و الممارسات التي تفضي بالروح إلى السمو والارتقاء الخلقي، وهو ما تسعى إليه جميع نظريات الأخلاق التربوية.

النتائج

1- التصوف وسيلة لتهذيب النفوس، يعتمد فيه الشيخ على ترسيخ القيم التربوية الإسلامية وجعل المريد فردا صالحا داخل المجتمع؛

2- يستنبط الشيخ الصوفي مصادره في تربية المريدين من القرآن الكريم والسنة النبوية؛

3- أسس الطريقة الصوفية المغربية تفرض على المريد اتباع ثلاثة أمور رئيسية: طلب العلم والعمل به، الذكر والمذاكرة، الصحبة والأدب.

مناقشة النتائج

لقد رأى الدارسون و مشايخ الإسلام أن اتباع منهج الزهد في الحياة، من بين الأساليب التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم في تهذيب المسلمين وهدي المشركين، وهو منهج يعتمد فيه على ترسيخ المبادئ والقيم التربوية المستنبطة من المصادر الدينية الإسلامية – القرآن الكريم والسنة النبوية. و المدرسة الصوفية المغربية تحاول اتباع نفس النهج والتأسي به ؛ لأجل تقويم السلوك وتهذيب النفس من خلال ما يحث عليه شيخ الطريقة.

مما سبق يتضح أن التصوف تربية للنفس وترويضها على الابتعاد عن ملذات الدنيا ونبذ شهوات الحياة ومتاعها، وليس التصوف فرقة مستقلة عن الدين ولها منهجها الخاص في الطريقة التعبدية، بل هو نزعة وجدانية وتربوية وروحية وأخلاقية، تجاه مجاهدة النفس وتهذيبها تهذيبا سلوكيا يحث على القيم الإنسانية العليا.

لذلك حاولت في هذا الموضوع الحديث عن التربية السلوكية من خلال منهج الشيخ الذي يعتمد فيه على تربية المريدين وحثهم على طلب العلم والعمل به على اعتباره وصية من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا جعل العلم فقط يقتصر على ما هو نظري وثقافي، بل يجب أن يظهر هذا العلم على مستوى السلوك وفي المعاملات مع الناس، ومن جهة أخرى يجب أن يتربى المريد/ الصوفي على أمر مهم وهو جعل اللسان رطب من ذكر الله حتى ينطبق القول مع القلب والسلوك. ومن جهة ثالثة حث المريد على الصحبة الصالحة وفيها يتم التأثير والتأثر من خلال اكتساب مجموعة من الأخلاقيات عن طريق الصحبة والتذكير بها.

وبالتالي، فالتربية عموما عند المتصوفة المغاربة من خلال المضامين الصوفية هي حفظ القلب واللسان من النميمة والغيبة والحسد...مصداقا لقوله تعالى: "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"[35].

[35] – سورة الشعراء: 88– 89.

الببليوغرافيا

1 – المنجد في اللغة والأعلام: دار الشرق، بيروت، لبنان، ط 39، سنة 2000م.

2 – أحمد أمين: ظهر الإسلام، المجلد 2، بيروت، لبنان، ط5، 1969.

3 – أمين يوسف عودة: تجليات الشعر الصوفي: قراءة في الأحوال والمقامات، دراسات أدبية، ط 1، عمان.

4 – ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط39، 2000 م.

5 – السهروردي: عوارف المعارف، هامش إحياء علوم الدين، عالم الكتب، دمشق، (د. ت)، ج 1.

6 – عبد الفتاح محمد سيد أحمد: التصوف بين الغزالي وابن تيمية، دار الوفاء، ط 1، مصر، 2000.

7 – عبد الحميد كشك: فضل الذكر والدعاء، دار البشير – القاهرة للطباعة والنشر والتوزيع، بدون طبعة.

8 – محمد بن أحمد بن بدوي الدسوقي الشنشوري: فقه الذكر والدعاء، ط 1، 1992.

9 – ممدوح الزوبي: الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، 2004.

10 – مقداد يالجن محمد علي: دليل التأصيل الإسلامي للتربية، الجزء الأول، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1419 هـ.

11 – صالح بن ابراهيم البليهي: سلسلة في معرفة الدليل (حاشية على زاد المستنقع)، ط 3، 1410 هـ.

12 – صالح بن حمد العساف: المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، الرياض، مكتبة العبيكان، 1989.

13 – شيث يوسف عيسى: الاتجاه الواقعي في الأعمال القصصية لبهاء طاهر، بحث ماجستير بعنوان، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا،2013م.